

مسارات الجدل في قصيدة المحرقة *

صدام فهد الاسدي

يركز هذا البحث على استقراء بعض جدلية اكبر شاعر عند العرب بعد المتنبّي الذي ظل صوتاً هادراً في اذان الحاكم والمحكومين على السواء، غاضباً ورافضاً ومهدداً ولاعناً (1) وهو القائل في تمردده: لو أن مقاليد الجماهير في يدي، سلكتُ بأوطاني سبيل التمرد (2)...

... والجواهري ديوان شعر عربي قديماً وحديثاً، شاعر عباسي ولد خطأ في العصر الحديث... وفي رحلة البحث عن زمنية جواهرية يخاطر الباحث في قصائد استغرقت الزمن كله وهو يحمل الشكوى ليس خائفاً بل (تهرباً من المسؤولية) (3)... وما اكثر براكين الجواهري وفي معادلات تهز الضمائر وتحرك المشاعر. وانك مهما بحثت عن الجواهري فلا تلمس إلا الكثير الذائب في عموم متسع يبتعد عن وفاق فكري ضيق. فلا حدود للشاعر إلا الفحولة والعلمقة تكشف ذاته المنفردة بالشعر أبداً، ولن أتكى على التنظير والمسلمات ولن احدد للجواهري بداية ونهاية لأنه لا يحدد، فحسبي أن نقاد الأمس ما انتهوا، والنقاد اليوم سوف يقولون ويتركون بستان الجواهري مليئاً بالأزهار والأشواك.. فماذا نقول والجواهري يمثل عمر العراق في دولته الحديثة بل يفوقها عمراً ويتجاوزها رمزاً (4) فكلما تلمس الباحث صرحاً يسمى الجواهري فلا يكاد يقترب من عليائه... ومما يزيدني عجباً ودهشة أن الشعراء يشغلون بالهم بالحديث عنه وعن سيرته الذاتية دون ان يواجهوا نصاً ابداعياً من شعره مواجهة حقيقية...

... لقد استطاع الجواهري أن يجمع بين ظاهرة التمرد والفن كما أشار الدكتور علي عباس علوان (5)، ومن هنا بدأت باحثاً عن ضالتي في قصيدتين مهمتين كتبهما الجواهري. الأولى عام 1931 في أزمة نفسية حادة على أثر ظروف خاصة عنيفة وملابسات سياسية كاملة وقد نشرت في جريدة العراق (6) وهي التي سيركز عليها البحث التالي. أما الثانية فقد نشرت عام 1975 (لغة الشباب)... ومادام النص منهاج الناقد في الدراسة والتحليل فدعوني أبداً كما أريد دون تسميات لمنهج محدد وربما اخرج بدراسة نافعة، فالحكم لا يعطى سلفاً...

1. القراءة الأولى / المستهل الشعري

تتكون القصيدة من 64 بيتاً على حرف روي مجهور (الراء) تقف على ملمح تكويني نوعي ينطلق من خلق شعري خاص في مجال الاستعمال اللغوي والملمح المعين مقصور على الكلام الشعري والبحث يدرس نصاً رائداً كاملاً من نصوص الجواهري التي تبرهن على صياغة اللغة وبناء صور أسلوبية من مادة لغوية تصل المتلقي بناءً أسلوبياً لا أفكاراً مادام الشعر بناء علاقات لغوية بممارسات أسلوبية (7). ولا أجد موازنة بين الشاعر الجواهري والذي يكتب المقال والخطيب والباحث ومؤلف الكتاب. فالأول لا ينقل الأفكار كالتابعين بل يشطر الكلمات إلى دلالات. ولا يصب مفرداته في مجرى محدد كما يفعلون، بل يهيم في واد خاض به حقاً. والقصيدة تؤكد ذلك الموروث العتيق وهو الشكوى بأداء شعري إيحائي خالص يبدأ بالقرار النهائي الذي يبثه الشاعر ليس عاجزاً بل متواضعاً في خرق تلك الخطوط والجدران قائلاً:

أحاول خرقاً في الحياة فما أجرا وأسف أن امضي ولم ابق لي ذكرا (8)

... وهذه الصورة الذاتية لو وضعناها قبل أي بيت في الأبيات المتبقية لما وجدنا اختلافاً في دلالات أفكاره وتآلف صورته وهو يبدأ غمار تجربة محرقية نادرة، ولعلنا نرى المدخل حيادياً لا يبوح بقدرة إنشائية كما يبدأ أي خطاب بالاستهلال، وكان القصيدة بيت واحد حتى أطلق جزافاً بان هذا النص نص جاهلي يأخذ الصورة التماثلية للمحكى الشفاهي بتلاحق قادم بين المسموع والمرئي حيث نقل الشاعر اختراقه الفعلي الحركي إلى عملية تبث

الجهد حين قال: (ويؤلمني فرط افتكاري) (9) متكأ على الفكر، وما قال الفعل والقوة، لان الفكر عند الجواهري فضاء واسع متناه مظلم يكاد يؤدي به إلى العجز لولا قوته وتحديه ...

2. القراءة الثانية (المرجع التكويني الداخلي)

أن النص يدل على حالة خاصة بالشاعر يريد منه أن يوجه الانتباه إلى العالم (10) فالجواهري يترك أمامنا رؤى متعددة من عالمه النجفي القائم على موروث وارتباطات ومميزات ببنية صرف، فهو يأسف أن يذهب عن الأرض دون أن يجلب نفعاً وهنا يبدأ بالمصدر الرفدي الأول القرآن مستذكراً سورتين عميقتين كبيرتين بالدلالة، قال تعالى في سورة سبأ "فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعاً ولا ضراً" (11). وفي سورة طه "الأ يرجع إليهم قولاً ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً" (12) ثم يرجع إلى بيئته النجفية الخالصة المكتظة بزحام متناقض يبعث التردد في فاجعته ويفجر البركان في موهبته من أولئك الذين يلبسون الثياب لستر عوراتهم ويظهرون التفاهات في نزوع نفسي لا خلاص منه... واثك لتجد هذا الابتار واضحاً بين مستهل أبياته الثمانية وبين مدخله اللاحق ولكنه سبك ببراعة شاعر فحل لا ناظم شعر قائلاً:

لبست لباس التعلبيين مكرهاً وغطيت نفساً إنما خلقت نسراً (13)

... واثك لتقف أمام طبيعته المتحركة (ثعالبة ونسور) فماذا يريد أن يرسم لك من فضاءات وامتداد لمقتنيات إبداع وهو يفترض (أن الصحراء المكان ليست مجرد مهاد يولد ويعيش وينام ويموت فيه بل حقيقة تسكن جسده كما تسكن فكره) (14) هكذا يقتص لك من دفتر بيئته صورة صحراوية تحمل تناقضين علواً وانخفاضاً للتعلب الماكر كنية المخادع والنسر المحلق الطموح البعيد للمعالي وهو يرسم حالتين متوازنتين لقيم الحيلة الساقطة والرفعة الخالدة وكي يزيد انتباهك إلى دلالات صحرائه البشرية يأتيك بالحمام المتملق لصاحبه مستعيراً منه الذيل:

ومسحت من ذيل الحمام تملقاً وأنزلت من عليا مكانته صقراً (15)

وهنا يأتي الحال اصعب من السابق فالمقارنة بين طبيعة متحركة أخرى (حمام خفيف ضعيف) يرتفع إلى مداه المعقول وبين الصقر الذي يختص بالصيد والفراسة وهو يرسم حالته بين خطين يائسين فلا يجد من محاولات الاقتناص الذاتي سوى الخيبة (وعادت يدي من كل ما أملت صفراً) فلماذا الفراغ وهكذا تتطابق الدلالات إلى تهويل مصاعب ومحن فمن التفكير المنوط إلى مسببات بلوى وتأمل مزور وشك شزر وتلاقح علاقة تعلبية وتملق حمام جائع إلى صدر مليء بالحقد فماذا تكون مرجعياته إلا الصبر على الأذى وهو يدرك بأن الحر لا يوجب صبره المضطر بل يجب أن يعلن تمرده ورفضه حتى يرسم لك صورة حسينية خالدة تنتقل مواسم الطف إلى ميدان العصر:

وليس بحر من إذا رام غاية تخوف أن ترمي به مسلماً وعراً (16)

... ثم نبدأ بالربع الأخير من قصيدة فينتقل الشاعر إلى بنية ثالثة عمادها الإنسان وهنا يلجأ الشاعر إلى بعث كل الطاقات المدخرة من حواسه الأخرى وعندما يرفض العجب والخيلاء والأغراء ويستشهد بأمثلة من الذكرة (كم من أصيد) سبقوه وكم حرة (وهنا يفيد الشاعر إفادة تعويضية من أولئك الذين يكونون سقط متاع في هذا الكون (وان مات لم يعرف له أحد خبراً) وتحصل هنا لديه الإزاحة للعمل الشعري إلى مجالات راصدة. أما المنحى الآخر فقد جاء مركزاً على المجهور والجهر لغة الشعراء في حالة الانفعال والتوتر في أبيات القصيدة وحرف رويها الرء (خرق، أجر، ذكر، الحر، مضطر)...

3. القراءة الثالثة : المرجع البنائي للشخص والأسلوب.

لا نخرج مهما حللنا تلك القصيدة بنهاية لأنها قصيدة صعبة المراس غير هينة التحليل ولكننا نصل بقراءتنا الثالثة إلى مرجع بنائي يرسم الشخص سبيلاً ضمن صفات معروفة (الصاحب ينظر شزراً، الثعلب تغدر وهي العداء، المخانيث، الأعوان، الندمان) ثم الشخص الماضي سناً (ياد، المتنبى، قارون) وهي رموز أدبية تاريخية ورموز نفسية (اصفر الوجه، خادع الناس) ورموز طبيعية جامدة (سيل وكوكب وقبر وشبر) ورموز

طبيعية متحركة (حمام، نسر، صقر). وتركز القصيدة على مكونين بنيويين من الماضي والحاضر، وكل مكون يشكل حركة من حركات القصيدة التي كما جاء الماضي كثيراً (وهو يحمل دلالة الشموخ والارتقاء دون التخاضل لبست، مسحت، عدت، حلبت، شربت، حببت، جوزيت، كنت، تجولت، شجعت، مجدت، مزقت، تطوعت، عاتبت).

علني أرى شبراً من الغدر خالياً كفاني اضطهاداً أنني طالب شبرا(17)

... وهكذا تنتهي القصيدة بالرجاء وقبلها يحمل غايته ورمزية قصيدته:

ذممت مقامي في العراق وعلني متى اعتزم مسراي أن احمد المسري

... فقد اخبر الناس بغريته ورحيله وسر عذاباته وتمرده فأن المقام لا يطيب في وطن يذبح شاعره ومبدعه... وهكذا اجتمعت الاستعارات والكنائيات والرموز والإشارات وجعلت النص الجواهري كلمات تروى كما تسمع وتفهم مكونة صورة كلية لنص واحد يسمى قصيدة كاملة. وبعد، هل يوجد في هذا النص جذب وغبار وشوك... أنها بركان جواهري يجبل النفوس النائمة لتصحو من نوم الغفلة ورقدة الجهالة أنها كلمات تحدى إلى اتجاه أفق أوسع يسير إلى فكر يكشفه الشاعر بدلالة هيئة باحثة عن وعي وشخصية نابشة في المستحيل وحسبي أن الجواهري لم يترك لنا خياراً في محرقة الاعتراف بأنه فحل من فحول الزمن الشعري العربي الخالد.

* ————— *

* مجتزأة من دراسة طويلة نشرتها باهتمام وسائل اعلام عديدة، وقد اجتهد المحرر المسؤول في موقع الجواهري على اختيار هذه المقتطفات ونأمل أن يكون الجهد موفقاً.

هوامش واحالات البحث

- | | |
|---------------------------|--|
| 10- كتاب المنزلات ص96 | 1- الجواهري - هادي العلوي 46 |
| 11- سورة سبأ الآية 42 | 2- ديوان الجواهري ج2 - 63 |
| 12- سورة طه الآية 89 | 3- الشعر والزمن - الخياط - 74 |
| 13- ديوان الجواهري ج3 ص85 | 4- الجواهري - فالح عبدالجبار - المستقبل 35 |
| 14- كتاب المنزلات ص45 | 5- تطور الشعر العربي . د. علي عباس 33 |
| 15- ديوان الجواهري ج3 ص85 | 6- جريدة العراق في 1931/11/9 |
| 16- المصدر نفسه | 7- البناء الشعري . علي كاظم ص29 |
| 17- ديوان الجواهري ج3 ص87 | 8- ديوان الجواهري ج3 ص85 |
| 18- المصدر نفسه | 9- ديوان الجواهري ج3/ص 85 |